كـلـمـة الـعـــدد

همّت زعبي*

لم تكن شريحة الشباب الفلسطيني بعيدة يومًا عن المشاركة في هموم شعبها في جميع أماكن وجوده، بل إنّ الأمر على العكس من ذلك؛ فقد كانت دائمًا ذات دور فعّال في الساحة السياسية والاجتماعية الفلسطينية. فعلى سبيل المثال، كانت الحركة الطلابية في الداخل الفلسطيني، في سبعينيات وثمانينيات القرن المنصرم، جزءًا فاعلاً بقوة على الساحة السياسية والوطنية. وفي الأراضي المحتلة عام 1967، كان لهذا القطاع دور هام جدًّا في الانتفاضة، استند إلى تجربة الشباب وانخراطهم في التنظيمات الطلابيّة والنقابات العمالية واللجان الشعبية وغيرها من التنظيمات.

ولكونها جزءًا من الشعب الفلسطيني، فهي تتفاعل مع التغييرات الاجتماعية والسياسية التي تحدث وتتأثر بها. وكان للركود السياسي الذي ميّز فترة ما بعد أوسلو تأثير على هذا القطاع كما على سائر شرائح المجتمع الفلسطيني. فتحول الشباب من مناضلين الى ناشطين، وضعف دور لجان الطلاب، التي تلاشت وشُلّت تقريبًا في الداخل الفلسطيني، وحين تجري محاولات إحيائها، فإنّها لا تقوم بأكثر من دور خدماتيّ. ولا يختلف الأمر كثيرًا في الأراضي المحتلّة عام 1967.

وقد شكّلت الأزمة السياسيّة في الساحة الفلسطينيّة، بنظري، أحد أسباب الانبهار بالحراكات الشبابيّة الفلسطينية التي برزت في السنوات الأخيرة. وقد علّق عليها الكثيرون آمالاً كبيرة، وخاصة أنها تزامنت مع تفاؤل عامّ رافق بداية الثورات العربية التي بدأت في تونس ومصر عام 2011، والتي اصطُلح على تسميتها بـِ "الربيع العربيّ".

كانت الروح "الثورية" التي طغت على هذه الحراكات في شعاراتها وممارساتها مؤشرًا لروح تغيير ما، وخاصة على الصعيد الفلسطيني الداخلي، فركّز الحراك في الضفة الغربية على مطلب إنهاء الانقسام

بالاضافة إلى نضاله ضد إنهاء الاحتلال. وحاول الحراك الشبابي في الداخل تحدي حالة الفتور بين الأحزاب من ناحية، ومواجهة الدولة مواجهة مباشرة من ناحية ثانية، بعد أن شهد الداخل الفلسطيني حالة من الترهل، وخاصة بعد أن تحوّلت مظاهرات لإحياء مناسبات وطنية إلى ما هو أشبه بالفولكورية منها إلى مظاهرات للتصدي والتحدي.

أما بخصوص تجزئة الفلسطينيين، فكانت هناك مجموعات شبابية حاولت تحدي هذه الحالة من خلال نشاطات جمعت شبابًا وشابات من الفلسطينيين في جميع أماكن وجودهم؛ كما في حالة مسيرة "العودة" التي انطلقت من جنوب في لبنان في الـ 15 من أيار عام 2011، ومن الجولان في سورية في الخامس من حزيران، والتي انضم إليها كذلك شباب وشابات من الداخل الفلسطيني.

بالطبع ساهم في كل هذا، بالإضافة إلى المناخ "الثوري" الذي ساد العالم العربي، استخدامُ وسائل اتصال حديثة، وهو ما سهّل -من ناحية- التواصلَ بين مجموعة الشباب، ومن ناحية أخرى ساهم في نشر نشاطاتهم وحراكهم على الشبكة ليصل إلى العالم.

لقد كانت هذه الأجواء محفزًا لتناول قضية الحراك الشبابي الفلسطيني، وذلك من خلال تسليط الضوء بشكل خاص على مساهمتها في تحدي الظروف السياسية الراهنة للشعب الفلسطيني، ومحاولة استشفاف أفقها السياسي وقدرتها وَ/أو إرادتها على المشاركة في تصميم الوعي الفلسطيني العام. وقد رأينا -على الرغم من أننا لا نزال من الناحية الزمنية قريبين جدًّا من الأحداث- أن فترة كافية نوعًا ما قد مرت على هذه الحراكات، وهو ما يسمح بتقويمها. وحاولنا، من خلال دعوة للكتابة حول الموضوع، استقطاب عدد كبير من الآراء والمواقف وخاصة لناشطين وناشطات من هذه المجموعة، مركّزين في دعوتنا على الكتابة عن النجاحات والإخفاقات ونقاط القوة والضعف لدى الحراك الشبابي الفلسطيني، وذلك في محاولة منا للمساهمة في فتح النقاش حول هذه القضية، والاستفادة من تجاربها المختلفة.

تمركز هذا العدد من "جدل" في مقالات حول الحراك الشبابي الفلسطيني في أماكن وجوده في فلسطين والعالم العربي. ويعرض مساهمات تتناول الحراك الشبابي في الضفة الغربية وغزة، كما يحتوي العدد مساهمة حول الحراك الشبابي الفلسطيني في لبنان، بالإضافة إلى مقالات تتناول الحراك الفلسطيني في مناطق الـ 48. وللأسف لم نتمكن -على الرغم من المجهود الذي بذلناه- من الحصول على ورقة حول الحراك الشبابي في الأردن. كذلك لم نتمكن من الحصول على ورقة تتناول الحراك الفلسطيني في سورية.

تُجْمِع معظم المقالات على أن ما يُصطلَح على تعريفه بالحراك الشبابي الفلسطيني أخفق في تحقيق تغيير ملموس وجدّيّ في الثقافة السياسية الفلسطينية، وتحوّل -لأسباب سياسية واجتماعية محلية، إقليمية وعالمية- من أمل في التغيير إلى صورة هشة شبيهة نوعًا ما بهشاشة المؤسسة الفلسطينية وثقافتها باختلاف أماكن وجودها.

يدّعي الباحث أحمد عز الدين أسعد في مقالته أن هناك هشاشة بنيوية اعترت الحراكَ الشبابيَّ الفلسطيني، مَرَدُّها إلى عدد من العوامل الذاتية والموضوعية. ويرى أن الالتحام المجتمعي بين الشباب والبنية الفلسطينية الجمعيّة أدى إلى حالات تأثير وتأثُّر، سلبًا وإيجابًا، بحيث انعكست البنْية الفلسطينية بكل إشكالاتها وتشظّياتها وهشاشاتها على بنْية ووعي الحراك الشبابي الفلسطيني، وقد ورث الحراك الشبابي (على نحوٍ طوعيّ غير واعٍ) هذه البنية التي تحولت إلى عطب يقوّض مبنى الحراك الشبابي الفلسطيني. ويضيف أن ثمّة عوامل أخرى ساهمت في ترسيخ هذه الهشاشة، ومنها فشل هذا الحراك في الهيمنة على فضاء عامّ مدينيّ للقيام بفعل الحشد. كذلك أدى الشرخ الجغرافي بين الضفة والقطاع إلى بتر طاقة الحراك الشبابي الفلسطيني. ينضاف إلى هذا اقتصارُ الحراك الشبابي على فئة معيّنة من الشباب وعدم قدرته على أن يكون شاملاً للشرائح الشبابية الفلسطينية كافة.

يتفق الباحث جبريل محمد مع خلاصة مقالة سابقه، ويرى أن التطورات الإقليمية والمحلية، ولا سيّما ما بعد مفاوضات مدريد ومن ثم الالتفاف عليها باتفاق أوسلو، أحبطت الشباب، وأفضت إلى مرحلة جديدة من العمل في أوساط الشباب قادتها السلطة، وقد أدت هذه التغييرات إلى انتشار عدوى اللا مبالاة وروح الخلاص الفردي، والذي تفاقم بتأثير من المنظمات الأهلية التي اعتمدت خطابًا نيوليبراليًّا تجاه الشباب. ويضيف جبريل أن انسداد الحقل السياسي الفلسطيني عمّق اللا مبالاة والاحباط لدى الشباب، وعزز لديهم العزوفَ عن العمل العام. كما ساهمت القوى السياسية -وإنْ ظهرت كداعمة للحراك في تقويضه من الداخل- في محاولة تجيير الحراك لصالحها. وفي النهاية، يَخْلص جبريل إلى أن الحراك الشبابي في الأراضي الفلسطينية لم يكن سوى محاولة تقليد عاجزة للحراك الشبابي العربي. وقد استثنى الحراكَ الشبابي لفلسطينيّي الـ 48، وإنجازَهم -ولو الجزئي- في التصدي لمخطط برافر، من هذه القراءة السوداوية.

وفي محاولة لقراءة وتقييم الحراك الشبابي لفلسطينيّي الـ 48، ولا سيّما ذلك المتعلق بـِ "مخطط برافر"، يكتب الناشط خالد عنبتاوي أنّ هناك ميزات ثلاثًا تَمَيّز بها هذا الحراك: الأولى هي العفوية؛ إذ نشأت المبادرة على نحوٍ عفويّ، ولم يكن لهذه المبادرة قيادة محددة أو عنوان محدد، واعتماد هذا الحراك على التفاعل مع الميدان أكثر من اعتماده على خطة مُعَدّة مسبقًا. الميزة الثانية المسؤوليةُ والتواضع في الدور والأداء؛ إذ وضعت الهدف الرئيسي لها المساهمة في إنجاح "يوم الغضب" الذي أعلنته لجنة المتابعة، وفي هذا إشارة مهمة أن المبادرة لا تسعى للتصادم مع القوى الوطنية القائمة. والميزة الثالثة أن الحراك نجح في تجاوز خطاب التضامن مع النقب، وتعامل مع قضية "برافر" كقضية وطنية عامة. وفي تحليله للحراك الشبابي ومستقبله، من خلال النظر لتجربة "برافر لن يمر"، يضيف عنبتاوي أنه من الضروري -بغض النظر عن حجم الدور الذي مثّله هذا الحراك في تجميد القانون- التعاملُ مع هذا الحراك كحالة لا كحدث عابر. كذلك يعتقد أنّ تعامل الحراك مع الأطر السياسية الفاعلة يُعتبر نموذجًا ذا دلالات إيجابية، وذاك طبعًا لا يمنع استمرار نقد الشباب لهذه الأطر ودور

الحراكات الشبابية، في تحدٍّ مستمر لها من حيث الخطاب والممارسة. وعلى الرغم من التفاؤل والإيجابية عند تناول حراك "برافر لن يمر"، يشير عنبتاوي في نهاية مقالته إلى قصور هذا الحراك عينيًّا، وإلى ضرورة الاستفادة من إيجابيات التجربة ومن قصورها لتتراكم وتستديم.

وحول أهمية التأمل في الحراكات الاجتماعية والسياسية الخاصة بفلسطيني الـ 48، يكتب الباحث عبد الله البياري أن هذه "الجماعة الفلسطينية" ليس منوطًا بها مواجهةُ الإزاحة الاحتلالية فقط، ولكنها تواجه الإزاحة التي يتعرض لها الإنسان والزمان والمكان الفلسطيني من الوعي والإدراك العربي. فـَ "الجماعة الفلسطينية" في الداخل المحتل تقع على خط المواجهة الدائم مع منظومة الاحتلال /الإحلال التي تزداد تغوُّلًا، كما تمثل تَمَظْهُرًا للتطورات السوسيولوجية للمُستعمَر، وكذلك يخضع بدرجات مختلفة لحدود القبائلية والعشائرية والعائلية والحزبية. ويرى البياري أن وجود حراكات شبابية على الأرض يُعتبر مؤشرًا على تأكيد هذه المجموعة من الفلسطينيين على تشكُّل ذاتهم الجمعية الفلسطينية. ويتناول في مقالته ميزتين في هذه الحراكات؛ الأولى تتعلق بتجمع غير ممأسس وغير تراتبيّ، والثانية قدرته العالية على استغلال مفهوم الفضاء العام المديني المحتل لصالحه. وفي تناول البياري للصعوبات والتحديات التي تواجه الحراك الشبابي الفلسطيني، في سياقه الخاص، يتطرّق إلى عقدة "كاريزما الفرد" التي تُعَدّ إفرازًا لكاريزما الحزب والجماعة والقبيلة والعشيرة والحركة والمنطقة والعائلة، والى الطريقتين اللتين يواجهه بهما الإسرائيلي عند تحركة؛ إحداهما الطريقة المباشرة، والأخرى موازية -وهي استعمال نفس النسيج الفلسطيني، على نحوِ ما حدث في مواقف رؤساء السلطات المحلية وبعض القيادات العربية التقليدية ورجال الدين.

أما الزميلة فداء شحادة، ومحررة هذا العدد، همّت زعبي، فقد حاولتا قراءة الحراك الشبابي الفلسطيني من وجه نظر نسوية، وذلك لحضور الشابات حضورًا جليًّا في هذا الحراك. وتشيران أن هذا الحضور يشكّل دليلاً واضحًا على زيادة في حضورهن في الساحة السياسية الاجتماعية الفلسطينية من جهة، ولكن هذا الحضور يستحضر، في الوقت نفسه، عدة أسئلة وقضايا تستحق البحث.

وتحاولان من خلال المقالة التطرق إلى بعض الأسئلة، كتلك المتعلقة بنوعيّة هذه المشاركة، وعمّا إذا كان حضور الشابات يعني بالضرورة أنهن شريكات متساويات في هذا الحراك، وعمّا إذا كان هذا الحضور يساهم في تغيير علاقات القوة المهيمنة على أساس النوع الاجتماعي في مجتمعنا، وفي نسونة الحراك الشبابي. كذلك تتوقفان في مقالتهما عند دلالات بروز الشابات في التغطية الإعلامية العربية والعبرية. وتتطرقان أيضًا إلى أسباب استهداف الشرطة للشابات في المواجهات. وتَخْلص كاتبتا المقال إلى صورة غير متفائلة نوعًا ما، فتستعيران من الحركات النسويّة نضالها ضد الفصل بين الحيّز العام كحيّز سياسي، والحيّز الخاص كحيّز اجتماعي /شخصي /عائلي، في محاولة منهما لتحقيق تغيير جوهري في القيم المجتمعية، باتجاه مساواة النوعين المجتمعين ومشاركة متساوية للحيّزات التي يعيشونها، وقد حاولتا من خلال هذه الاستعارة أن تحللا الحراك الشبابي من وجه نظر جندرية، وخَلصتا الى أن فشلاً مشابهًا أصاب الحراك الشبابي الفلسطيني. ففي حين نجحت الحركات النسويّة، عمومًا، في إخراج النساء إلى الحيّز العام، لم تنجح في إدخال الرجال إلى الحيّز الخاصّ. ووجدتا أن الحراك الشبابي الفلسطيني عامة أعاد بناء النمط نفسه؛ فخرجت الشابات إلى الحيز العام، وحاولن بكل قواهن المشاركة فيه مشاركة كاملة، فكنّ من المبادِرات والمنظِّمات والمشارِكات في النشاطات السياسية العامة، وكذلك الأمر في النشاطات السياسية الاجتماعية النسويّة. في المقابل، لم يذوّت الشباب ضرورة حملهم للهمّ الاجتماعي عمومًا، والنسوي على وجه الخصوص، كجزء من مشروعهم السياسي. ومنعًا للتعميم، تكتب شحادة وزعبي عن حالات تستثنى من العامّ، وتحاولان أن تسلطا الضوء على خصوصية هذا الاستثناء، أملاً في أن يتوسع هذا الهامش لأنه ضروري للوصول إلى إحداث تغيير اجتماعي سياسي واسع.

لا يقدم تحليل أنيس محسن صورة أفضل، حين يكتب عن الحراك الشبابي الفلسطيني في لبنان؛ إذ إن ضعف الوضع الفلسطيني عامّة، وفشل الفصائل في تحقيق حد أدنى من مطالب اللاجئين على المستوى الوطني، وتحسين أوضاعهم الحياتية على المستوى المحلي، كلّ هذا دفع الشباب إلى

الانفضاض عن الفصائل وتشكيل حراكات شبابية، تحاول ملء الفراغ الناشئ عن ضعف الفصائل، لكن على نحوٍ فوضوي قابل للاستغلال. ويضيف أن استثناء اللاجئين عمليًّا من المشارَكة في بحث مصيرهم في المفاوضات بين منظمة التحرير وإسرائيل، منذ مؤتمر مدريد في عام 1991، وتهميش الفصائل العاملة في لبنان لهم، وعدم الأخذ بعين الاعتبار تطلعاتهم ومطالباتهم بتحسين أوضاعهم، والاستمرار في استخدامهم في المزايدات الفصائلية، والتمييز ضدهم اقتصاديًّا وقانونيًّا في لبنان، كلّ ذلك خلق حالة من الإحباط لديهم، ودفع بعضهم إلى المطالبة بِـ "حق الهجرة"، بينما البعض الآخر بات همّه الأساسي تحسين ظروف الحياة في المخيم، وقد تحول "حق العودة" لديهم من حلم قد يتحقق، إلى حلم مستحيل لا يمكن تحقيقه.

وعلى الرغم من شعور الشباب بأنهم منسيون كلاجئين وغير مُدْرَجين، في حقيقة الأمر، ضمن ما طُرِح ويُطرَح من حلول للقضية الفلسطينية، وعلى الرغم من إحباطهم، فإنه في ظل الأزمات الكبرى (كما خلال العدوان الأخير) يمكن للشباب الفلسطيني في لبنان، الذي بات أكثر استقلاليةً عن الفصائل، أن يضع جانبًا ومؤقتًا همومه الخاصة، وأن يعمل في إطار عام. وبالتالي يخلص إلى أنهم -إذا وُجدت ظروف موضوعية تتيح لهم القيام بمبادرات وطنية- مهيَّؤون للقيام بها، ومبادرون إليها في كثير من الأحيان.

مقابل التجارب التي تناولتها معظم مقالات هذا العدد، والتي تتشارك معظمها في عدم تفاؤلها، تستحضر تجربة "متحرّكين" نوعًا من الأمل، وقد يعود هذا إلى تعلّمها من تجارب سابقيها أو لصغر سنها نسبيًّا (تشرين الثاني 2013)، وربما لاختيارها هدفًا موحِّدًا وواحدًا يجتمع عليه جميع الأعضاء والعضوات، ومع هذا ما زال من المبكر الحكم عليها. ويكتب خليل غرة، أحد أعضاء المجموعة أنه وراء مجموعة "متحرّكين" يقف شُبّان وشابّات من مختلف أماكن الوجود الفلسطينيّ في الوطن والشتات. تسعى المجموعة لإحداث التغيير على المستوى السياسيّ والاجتماعيّ في فلسطين، متخطيةً الصورة النمطية التي عزّزتها حالة العزلة وفرضتها سياسات الاحتلال علينا كشعبٍ واحد، وتهدف

أيضًا إلى كسر الهُويّات الفرعية المناطقية الناتجة عن التقسيمات الاستعمارية. إحدى أهم أدوات "متحرّكين" هو التواصل الفلسطيني- الفلسطيني الذي تعتبره المجموعة وسيلةً لا هدفًا، ليصبّ ذلك كلّه في محاولة لتعزيز وبناء الهُويّة الوطنيّة الفلسطينيّة الجمعيّة. ووضعت المجموعة في سلّم أولوياتها معالجة قضية انتهاك الحقّ في حرية الحركة والتنقل؛ وهي قضية تمسّ أبناء الشّعب الفلسطينيّ كافة، ولا ينحصر تأثيرها في مجموعة بعينها. ويضيف غرة أن المجموعة اختارت آليّتين للعمل؛ تتركز الأولى في كتابة أوراق سياساتية حول موضوع الهُويّة وانتهاك الحق في الحركة والتنقل، لتقدمها لمؤسسات فلسطينية وعالمية. أما الثانية، فتتعلّق بحملات إعلامية تسعى من خلالها إلى بناء حملة مناصرة شعبية ومرافعة دولية بخصوص القضية.

ويتطرق غرة من خلال مقالته إلى التحدّيات التي واجهت وما زالت تواجه "متحرّكين". ومنها تعدُّد الأولويات والأفكار والهموم والمسؤوليات بين أعضاء وعضوات المجموعة، وبخاصة على ضوء حضورهن من مناطق مختلفة ذات واقع سياسي اجتماعي مختلف. كذلك يشكل اختلاف المشارب الفكرية التي ينتمي إليها أفراد المجموعة تحدّيًا إضافيًّا. كما يتناول أساليب تعتمدها المجموعة لتتجاوز هذه التحدّيات. ويختتم المقالة بافتراض يقوم على أن مواجهة الحواجز ومعيقات التنقل والحركة، التي تواجه الفلسطينيين في أماكن وجودهم كافة، كفيلة بتشكيل أساس وطني مشترك متلاحم بدل الغرق في التفاصيل المحلّيّة والقضايا الفرعية.

نقد الحراكات الشبابية الفلسطينية الفاعلة اليوم في المجتمع الفلسطيني، كما جاء في مقالات هذا العدد، لا يرمي إلى التقليل من أهميتها أو التقليص من دورها، بل على العكس من ذلك، ما هو إلا مؤشر على أهمية الدور المتوخى منها سياسيًّا واجتماعيًّا. ونتمنّى أن تضاف هذه المساهمة إلى مساهمات أخرى تتناول دور الشباب والشابات الفلسطيني تاريخيًّا، لتساهم في تعميق فهمنا للتجربة الفلسطينية الشبابية في تراكميّتها لا في آنيّتها فحسب. وكذلك نتمنى أن يكون في نقدها هذا

استفادة من أجل النهوض بها على النحو الذي يتناسب مع ضرورتها للنهوض بالمجتمع الفلسطيني عمومًا.

* **همّت زعبي** ناشطة نسويّة وطالبة لقب ثالث في العلوم الاجتماعية في جامعة بن غوريون - بئر السبع.